تأصيل الأنا الوجودية في ظل الشيزوفينيا الأنثروبولوجية

د.أسماء بالشيخ - جامعة أدرار- الجزائر

الملخص :

يحاول هذا المقال الاجابة عن مدى واقعية ايجاد هوية محلية لعلم الأنتروبولوجيا، وما واقعه الآني في ظل المعطيات الميدانية والأكاديمية والاستشرافية، وكيف يمكن التخلص من هاته الشيزوفينيا المنحل فيها عمليا واجرائيا.

Abstract :

This article tries to answer the reality of finding a local identity of the science of anthropology and what is present in the light of the field, academic and future data, and how to get rid of these schizophrenia characterized by anthropology practically and procedurally.

مقدمة:

إن الحديث عن الأنا الوجودية يعني الحديث عن الكيان المتكامل الأعضاء والمتناسق الأهداف والعريق الجذور، أي يعني الحديث عن الهوية التي اكتمل تأصُلها، وليست السائرة التأصيل ولا الوهمية التأصيل.

هذا الذي يمكن أن نسايره في سير حديثنا عن الأنتروبولوجيا التي تتأرجح من حيث المبدأ بين تموضعات تتناقض وتتناغم شزيوفينياً، فمن الأنتربولوجيا المادة، الى الأنتروبولوجيا الفرع التخصصي، الى أنتروبولوجيا التخصص المستقل...

وبين طيات هاته المحطات كلها تراكمات كثيرة وجدليات نقاشية عديدة طُرحت وتعالت في الكثير من المناسبات، خاصة في اطار علاقتها بالسوسيولوجيا، هذان التخصصان اللذان شاءا أن تتحول بينيتهما من التوأمة الى الانحلال والانصهار، مما طرح ضرورة الانشطار ونبذ الاحتلالية من خلال عدة آليات كان من مظاهرها ظهور مراكز ودوريات أنتروبولوجية محضة، وتخصصات مستقلة خاصة بعلم الأنتروبولوجيا كتخصص أم...

إلا أن هذا عمليا لا زال يتعرض لعوائق جمة، منها العوائق المعرفية كصعوبة الفصل الدقيق والتام بين الاجتماعي والأنتربولوجي، وكذا بين الثقافي الشعبي والأنتروبولوجي، ناهيك عن العوائق التنظيمية المرتبطة بالهيكلة العلمية للتخصص في ظل النظام الجديد، وكذا في توسيع دائرة النخبة المكوّنة فيه في ظل محدودية بسطه كتخصص أكاديمي في الجامعات الجزائرية.

بالإضافة الى كل هذا وذاك ارباكاتنا المرتبطة بتصور المحتوى المعرفي لهذا التخصص من حيث كونه تخصص من الضرورة بما كان أن يكون محتواه منصبا في معالجة الظاهرة المحلية بمنظورات محلية أيضا، بعيدا عن استنساخ الأنتروبولوجيا الغربية بمحتواها التحليلي والأمبريقي.

وهذا مربط الاشكال لكونه اشكالا عويصا فإن حلت اشكالية تراكم الدراسات الأمبريقية، فما مصير الطروحات والنظريات والمفاهيم والمناهج من المحلية، أم أننا سنبقيها غربية؟ هذا الاشكال الذي نوقش مرارا ولم تبسط له يد العمليّة الى يومنا هذا في كل التخصصات الانسانية والاجتماعية لا الأنتربولوجيا فحسب.

من هذا يمكن الانطلاق في مقالتنا هاته لمعالجة الاشكال الذي مفاده:

ما مدى واقعية ايجاد هوية محلية لعلم الأنتروبولوجيا وما واقعه الآني في ظل المعطيات الميدانية والأكاديمية والنخبوية والاستشرافية؟ وكيف يمكن التخلص من هاته الشيزوفينيا عمليا واجرائا؟

أولا: مدخل مفهومي لعلم الأنتروبولوجيا:

لقد اختلفت التحديدات التعريفية لعلم الأنتروبولوجيا في عمومها، إلاّ ما تعلق بالتحديد اللغوي لها، الذي اتفق فيه على كونه "يعود الى العهد اليوناني على اعتبار هذا الاصطلاح مسمى ينقسم الى قسمين Anthropos و Logia بحيث تعني الأولى الانسان والثانية العلم أو الدراسة، وهي مجتمعة علم الانسان أو الدراسة العلمية للإنسان"[1].

هاته الترجمة الحرفية التي أعابها الكثيرين نظرا لكونها أفقدت بعضا من صرامة ودقة العلم وموضوعه في نفس الوقت، أي دراسة الانسان كذات بيولوجية واجتماعية وثقافية واقتصادية وعقائدية وايديولوجية وحضارية، فموضوع الانسان هو في حد ذاته ظاهرة متشعبة ومعقدة وغامضة وبالتالي فإنه يصعب دراستها دفعة واحدة وفق منظور معرفي ومنهجي وموضوعاتي واحد موحد[2].

وخير تعريف للعلم كما تقول الأنتروبولوجية "ميد" هو تعريف الدور الذي يقوم به هؤلاء الأنتروبولوجين لدى قالت: "إنّنا نعمل على تصنيف الخصائص الإنسانية البيولوجية والثقافية للجنس البشري كأنساق تترابط في تغيّر مستمر، وذلك عن طريق مقاييس ومناهج مبتكرة، كما نهتمّ أيضاً بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية وتفسيرها، إضافة إلى البحث في الإدراك الفكري للإنسان ومعتقداته وانجازاته، والوسائل العملية الاتصالية لديه، وعموما اننا نحن الأنثروبولوجيين نسعى لتفسير نتائج دراساتنا والربط فيما بينها في إطار نظريات التطوّر، أو ضمن مفهوم الاتحاد النفسي والمعنوي المشترك بين البشر"[3].

من ذلك يمكن القول أن الأنتروبولوجيا (علم الانسان) ذي الأصول اليونانية هو علم يُعنى بالبعد الفيزيقي والثقافي والاجتماعي لنظم الحياة في المجتمعات البسيطة والمعقدة وذلك بدراستها وتفسيرها وفق أساليب منهجية متطلبة الدقة والتمرس، لغرض انتاج فكر وتقارير حول ذواتنا الفاعلة انسانيا.

ثانيا: كرنولوجيا الأنتروبولوجيا (اطلاقة غربية وأفول عربي):

لم تسلم كل العلوم من ارتباك العملية التأريخية فيها نظرا لفشل الجهود في توحيد زمن ومكان انتاجها كأول عمل ينم على ابتكار علم جديد من شأنه أن يتكفل بالدراسة العلمية لوقائع معينة، ومن ذلك علم الانسان الذي نجد في تحديده يعودون به الى "عام 1501 نظرا لظهور اصطلاح أنتروبولوجين Anthropologeion كعنوان لكتاب المفكر هندت Hundt والذي تكلم فيه عن الخصائص التشريحية لجسم الانسان، وفي عام 1533 أورد

المفكر كوبيلا Copella أيضا هذا الاصطلاح في كتاب بعنوان L'Anthropologia و الذي يدرس فيه الصفات الشخصية للأفراد..."[4]

وهنا نلاحظ أنه بالرغم من الامتداد اليوناني للكلمة إلا أن هذا العلم لم يترعرع يونانيا وكأن النعت اليوناني هنا كان من باب الاصطلاح لا النشأة، كما جرى الأمر مع تسميات الكثير من العلوم غيرها (السوسيولوجيا مثلا...) ناهيك على أن هاته الأخيرة (اليونان) قد عُرفت بالفلسفة أكثر منه شيئ آخر، الأمر الذي جعل الكثير من العلوم تجد لها امتدادا فلسفيا قبليا زال مع تمرد النزعة العلمية، الأمر الذي يبرر عدم وجود اللمسة اليونانية من حيث الانتاج الفعلي في العلم كلم قائم بذاته.

ومواصلة لذلك نجد أنه "في سنة 1655 سجلت كأول سنة ظهر فيها اصطلاح انتروبولوجيا في اللغة الانجليزية في كتاب مجهول المؤلف يحمل عنوان: Anthropology Ab-stracted ويدور حول الطبقية البشرية"[5].

أما في أوربا نجد أن الباحث الفرنسي جان بواريبه J.poirier يذكر أنها ظهرت أولا في كتابات علماء الطبيعة ابان القرن الثامن عشر، لتعنى بدراسة التاريخ الطبيعي الألماني في منهج تدريس التاريخ الطبيعي بالمقررات الجامعية، كما قد استخدمه في الطبعة الثالثة من كتابه الذي صدر عام 1795 بعنوان "التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر" De Generis Humani Varietate، ويذكر بواريبه في ذات السياق أن الفيلسوف الألماني ايمانويل كانت I.Kant قد كان له دور أيضا في اشاعة استخدام هذا المصطلح خاصة بعد صدور كتابه "الأنتروبولوجيا من منظور علمي"..."[6].

هذ المسار الذي يجعلنا نستشف أنّ ابان القرن18 وما قبله كانت الجهود الأنتروبولوجية عبارة عن انتاجات قليلة ومتفرقة ميدانيا، وترتكز أغلبها حول الاختلافات الفيزيقية والبيولوجية بين الأفراد.

ومع بزوغ موجة عصر التنوير في القرن التاسع عشر سمح ذلك بظهور مخاض علمي كبير كان نتاجه ميلاد العديد من العلوم الانسانية والاجتماعية التي سارت جنبا الى جنب بحكم أن التراكم في احداها يمكن أن يستثمر في الآخر، ومن ثمة سيتحقق ثراء علمي متبادل،

يكون من شأنه المساهمة في نضج العلم وتدقيق أهدافه ومجالاته و مناهجه الأمر الذي استفاد منه علم الأنتروبولوجيا بدوره على غرار العلوم الأخرى.

كما قد ميّز هاته المرحلة أنه بدأ فيها توسع للأنتروبولوجيا الاجتماعية و الأنتروبولوجيا الثقافية، و في المقابل تراجع للأنتروبولوجيا الفيزيقية التي كانت على أوجها سابقا، نظرا لأن الأنتروبولجين الناشطين حينها كانت لهم في الغالب امتدادات في علم الاجتماع أو الثقافة الشعبية أو الآثار مما جعل الأنتروبولوجيا أكثر توؤمة مع العلوم الانسانية والاجتماعية منه مع العلوم البحتة (البيولوجيا، علوم الطبيعة، الطب...) الأمر الذي منح ازدهارا لهدين الفرعين على وجه الخصوص دون الأول.

وحتى بعد انتقال هذا العلم للبيئة العربية نجد أنه قد ألحق كتخصص أكاديمي من تخصصات العلوم الانسانية والاجتماعية، الأمر الذي جعل التكوين فيه يكون من الذين هم في هذا المسار وليس في مسار العلوم الطبيعية و البيولوجيا... الأمر الذي جعل الأنتروبولوجيا الفيزيقية متوارية تماما في البيئة العربية، في حين هناك دراسات جمة في فالأنتروبولوجيا الاجتماعية وكذا الأنتروبولوجيا الثقافية.

ثالثا:الأنتروبولوجيا بين توجهات المدارس* (الأمريكية، الأوربية، العربية...):

ممّا لا يخفى علينا أن الأنتروبولوجيا بعد اكتمال بنيانها الموضوعي والمنهجي والنظري وفي سير تفاعلها مع بيئات الرواد الأنتروبولجين المختلفة، خلف ذلك تمايزا اهتماميا يصب كله لصالح التطور العرضي في العلم، نظرا لكونه سيرسب لنا تنوعا فكريا وميدانيا يثري المحتوى التفسيري والتجريدي للتخصص، وانما لا بأس أيضا أن نعرف توجه كل مدرسة، ومبررات هذا التوجه من حيث المحتوى والموضوعات والمجتمعات والنظم والنظريات المفسِّرة.

حيث أننا عند الحديث عن "اصطلاح الأنتروبولوجيا Anthropology في الولايات الأمريكية المتحدة نفهم منه في أغلب الأحيان دراسة التطور البيولوجي للكائنات البشرية وتطورهم الثقافي طيلة فترة ما قبل التاريخ...في حين لما نقول بكل اختصار الأنتروبولوجيا في فرنسا فإننا نعني بها ما له علاقة بالتنوع المعاصر في الثقافات الانسانية"[7].

وفي قراءة أخرى هناك من يرى أن "في إنكلترا يطلق مصطلح الأنثروبولوجيا على دراسة الشعوب وكياناتها الاجتماعية، مع ميل خاص للتأكيد على دراسة الشعوب البدائية، أمّا في أمريكا فيرى العلماء أنّ الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة، في حين أنّ علماء فرنسا يعنون بهذا المصطلح دراسة الإنسان من الناحية الطبيعية أي العضوية[8].

حيث أن ما يدرجه الأمريكيون تحت عبارة الأنتروبولوجيا الثقافية يصطلح الفرنسيون عليه بالاثنولوجيا أو الاثنوغرافيا في بعض الأحيان، وهم يدرسونها تحت مظلة علم الاجتماع أما الانجليز فقد اختاروا تسمية أخرى وهي الانتروبولوجيا الاجتماعية social Anthropology ونظروا اليها باعتبارها علما قائما بذاته على اعتبار مهمتها هي دراسة السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية ..أما في ألمانيا نجد أن كلمة انتروبولوجيا تستخدم للإشارة الى الدراسة الطبيعية للإنسان بينما تستخدم كلمة اثنولوجيا لتشير الى علم الشعوب...أما اذا انتقلنا الى الاتحاد السوفياتي ومعه معظم بلاد شرق أوربا نجد أن مصطلح الاثنوجرافيا يشيع استخدامه لديهم، كما يهتم الاثنوغرافين السوفياتين بدراسة المشاكل المتصلة بالجماعات العرقية والمشاعر القومية للأقليات[9].

ومن هذا المنطلق يمكن أن نختزل خصائص الأنتروبولوجيا في هاته البيئات كما يلي:

المدرسة الأمريكية:

- التركيز أكثر على دراسة المجتمعات البدائية.
- التركيز على الأنتروبولوجيا الثقافية.
- التركيز على العمل الأمبريقي.

المدرسة الفرنسية:

- التركيز على موضوعات التنوع الثقافي.
- التركيز على المجتمعين البدائي وكذا المعاصر.
- التركيز على فرع الانتروبولوجيا الفيزيقية.

ـ اعتبار الاثنولوجيا والاثنوغرافيا من تخصصات علم الاجتماع.

المدرسة البريطانية:

ـ التركيز على المجتمعات البدائية.

ـ استخدام الأنتروبولوجيا الاجتماعية بديلا عن باقي اصطلاحات المدارس الأخرى.

المدرسة العربية:

ـ التركيز على المجتمعات المتخلفة عن الحداثة.

ـ التركيز على الموضوعات التراثية.

ـ الاهتمام بفرع الأنتروبولوجيا الاجتماعية.

رابعا:موضوع الأنتروبولوجيا وتناقضات المحتوى:

يعتبر "موضوع" العلم من بين أحد دعائم قيامه اضافة الى المنهج والنظرية، على اعتبار أن بدونه نكون أمام فراغ بنيوي تأصيلي، والمقصود هنا بالموضوع هو جملة الوقائع والاهتمامات التي ينصب عليها العمل البحثي في هذا العلم.

وفي علم الأنتروبولوجيا تَعتبِر جُل المؤلفات فيه أن موضوع هذا العلم هو محاولة دراسة النظم في المجتمعات البدائية على اعتبار هاته الأخيرة تتميز بما يلي[10]:

ـ الاعتماد على جمع الطعام والصيد.

ـ التكتل في معاشر ومجموعات تمتاز بصغر حجمها وكثافتها.

ـ الأميّة (الجهل بالقراءة والكتابة).

ـ تشابه خبرات الأفراد بحيث يجتاز الفرد مهنة يختارها أو يمر بها معظم أفراد المجتمع.

ـ توافر الشعور القوي بتماسك الجماعة وتضامنها عضويا ودمويا.

ـ سيادة التجانس واختفاء تقسيم العمل إلا فيما يتعلق بالعمر والنوع (ذكر، أنثى).

ـ الاكتفاء الذاتي وما يترتب عنه من ضعف الحافز الاقتصادي.

ـ الخضوع اجتماعيا للأعراف والتقاليد.

إلا أن هذا النوع من المجتمعات قد بات منعدمٌ في العالم المعاصر، مما جعل هذا العلم يقع في مأزق تعريفي، الأمر الذي دعى الى اعادة النظر في هاته التعريفات وفتح المجال نحو المجتمعات الآنية باستبدال كلمة بدائية بكلمة "التقليدية" أو "الغريبة" للإشارة دائما الى تراتبية متخلفة لم تصل لها بعد هاته المجتمعات قيد الدراسة الأنتروبولوجية، لأنه من الضروري أن يكون للعلم موضوعا مستمر وغير مقيد معاشيا بلحظة أو زمن ينتهي تواجده فور انتهاءها.

خامسا: العلاقة الديالكتكية بين الأنتروبولوجي والسوسيولوجي:

من حيث المنطلق المنهجي هنا لا يمكن أن نحدد بدقة معالم العلاقة إن كنّ سنقارن بين تخصصين، أو بين تخصص وفرع، أو بين علاقة انفصالية أو علاقة احتوائية، و ذلك مرده أن العلمين بحد ذاتهما يريدان الاتصال والانفصال في ذات الوقت، لكن أين يكمن مربط الاشكال هنا؟

لقد عرف نهايات القرن 19 موجة مخاض علمي كبير سمح ببروز الكثير من العلوم الانسانية والاجتماعية على غرار باقي العلوم الأخرى، ومن هاته العلوم علم الاجتماع الذي انطلق ببداية جريئة ومقدامة سمحت له ببسط مكانته النظرية والمنهجية و التحليلية مما وفر له فرصة تشكيل صورة واضحة المعالم عن ذاته، وفي ذات السياق كانت الأنتروبولوجيا لا زالت بين أغشيتها تفضل الاحتضان الرحميّ لبعض من الزمن لا الولادة القيصرية الفورية، هاته الاحتضانة التي وفرت له عن طريق علم السوسيولوجيا، خاصة وأن كثير من الأنتروبولوجين هم بامتداد سوسولوجي أو سوسيولوجين بامتداد أنتروبولوجي.

في ظل ذلك بدى لنا أن الأنتروبولوجيا ما هي إلا فرع من السوسيولوجيا أو أحد موادها واستمر الوضع على ذلك لعقد من الزمن بشكل تجانسي مستقر، إلا أن هذا الوضع خلف مايلي:

ـ المزيد من التطور لعلم الاجتماع انتشاريا ومنهجيا ونظريا في حين الكمون التطوري للأنتروبولوجيا التي بدت ساكنة نسبيا في ذات النقطة.

ـ امتلاك علم الاجتماع الحصانة والرعاية على علم الأنتروبولوجيا مما قزم من دور هذا الأخير.

ـ عدم الاهتمام بالبعد الأكاديمي لتخصص الأنتروبولوجيا مما جعله في أحيان كثيرة يعتبر أحد التخصصات الفرعية لعلم الاجتماع.

ـ عدم تكافؤ الفرص لنمو فروع الأنتروبولوجيا على حد سواء مما جعل هناك تراجع واضح في الأنتروبولوجيا الفيزيقية وتقدم وانتشار للأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية النابع أساسا من الانتشار السوسيولوجي كونه يرعى هاته الجوانب على وجه التحديد.

ـ اختلاط الكثير من تراكمات التخصصين (الدراسات، النظريات..) مما صعب لاحقا ايجاد خط فعلي فاصل ودقيق لتحديد الحدود البينية بينهما.

ـ اهمال بناء أعمدة العلم في الأنتروبولوجيا (الموضوع، المنهج، النظرية) طالما أنها مستندة على أعمدة علم الاجتماع مما خلق لاحقا جوفية نظرية وهلامية حول موضوعها وخلق أيضا حالة انصباب كل الاسهامات في الدراسات الأمبريقية في العلم وفقط، مما جعل العديد يعتبرون الأنتروبولوجيا مجرد "منهج" بحث أمبريقي.

هاته العوامل مجتمعة جعلت لاحقا المختصين في علم الأنتروبولوجيا (الذين تزايد عددهم كما ونوعا) في تضايق من هاته الوصاية السوسيولوجية، الأمر الذي خلق موجة المطالبة بالاستقلالية التامة وتعمد انشاء دوريات ومؤلفات ومراكز تحمل مسمى "الأنتروبولوجيا" كآلية دفاعية الهدف منها حماية الأنا الوجودية لتخصص علم الانسان، وهي مطالبة من حيث أحقيتها تعد مشروعة شرعية تامة علميا واستشرافيا وأكاديميا.

سادسا:خلل مقومات ترسيخ الهوية الأنتروبولوجيا عربيا:

لقد عرفت العلوم مع مطلع القرن العشرين ظهور تيارات الأسلمة، هاته التيارات التي كان فحواها ضرورة العمل على ايجاد نسخة عربية/اسلامية لهاته العلوم الوافدة لنا من الغرب الذي نرى أنه لا يحاكينا ثقافيا واجتماعيا ودينيا وواقعيا وفكريا، الأمر الذي يجعل منطلقاتهم التحليلية لا يمكن أن تسقط على واقعنا اسقاطا موضوعيا وحياديا.

ومما يلاحظ أيضا أن الغرب مكتشفوا هاته العلوم لم يطالبوا يوما بتوطينها ولا بانفصاليتها فالعلم الذي اكتشفه أوربّي لم نسمع أسياويا ما أو أي اثنية اخرى غير اثنية مكتشفها طالبت بأسيويتها أو محليتها.

بل وحتى في العلاقة ما بين السوسيولوجيا والأنتروبولوجيا نجد أن البيئة العربية هي وحدها التي تعرف موجة حادة لضرورة الانفصال التخصصي والاستقلالية في حين عند الغرب لا يوجد هذا الأمر، ممّا يجعلنا نطرح هذه الفكرة على محك التساؤل والاستفسار؟

هنا يمكن القول أن هناك واقع "عربي" يختلف تماما عن واقع الآخر؛ هذا الواقع الذي مفاده ما يلي:

ـ لا يعيش الغرب حالة تشويش هوياتي علمي نظرا لكون العلوم خرجت من محتوى جعبتهم ومن أوطانهم في حين العرب أتته بفعل عوامل مقصودة وغير مقصودة، فهي وافدة بكل المقاييس.

ـ يعيش الوطن العربي واقع نخبوي خاص بحيث أن معالم النخبة فيه تختلف عن معالم النخبة الغربية، حيث أن الأولى تعرف مظاهر عدة (التعصب الاثني، الطبقية، التعالم، المحاباة، السلطوية....) مما سينعكس لا محالة على ممارستهم العلمية.

ـ عدم المطابقة الزمنية، والتي نقصد بها أن الغرب عندما ظهرت عندهم هاته العلوم وعاشوا لحظة ميلادها والانبهار بها كان العرب في منأى عنها جملة وتفصيلا، وعندما بدأ العرب باحتضان هاته العلوم والانبهار كان الغرب قد قضوا منها وطرا وانتهت بهرجتهم به مما يفسر حالة المطالبة المشتعلة عربيا آنيا.

ـ يختلف استخدام الغرب للعلوم الانسانية والاجتماعية عنه لدى العرب بحيث يهتم الغربي بالعلم لأجل تفسير واقعه المعاش فعليا تفسيرا موضوعيا نقديا في حين يستخدم العربي هاته العلوم لأجل الدراسة الأكاديمية فحسب، مما يجعل الغربي يهتم بثار العلم على مجتمعه أكثر من اهتمامه باستقلاليته أو تبعيته، والمهم في ذلك عنده أن يقدم دورا وظيفيا لبيئته وكفى.

ـ اللاّحيادية التي توجد غالبا لدى العربي منه لدى الغربي، حيث عند قراءتنا لكتابات الغرب تجد فيها الكثير من الحديث عن شروخات المجتمع وحالات الاضطراب في المجتمع الفرنسي أو الأمريكي أو العرقية والطبقية ...و غيرها، في حين نجد العربي يسعى في هاته العلوم لتحقيق الغلبة العرقية و الإثنية مما يجعله يراكم لنا دراسات غزلية حول ثقافة بني أجداده ومجتمعه أكثر منه دراسات تشريحية فعليّة، وفي حالت كانت الثانية نجد أنه قد تمارس عليها ضغوط اجتماعية لقمعها ونسف طارحها.

فكلها دواعي تبرر الموقف العربي الحالي اتجاه هاته العلوم، و التي ليس بالضرورة هي تساير الموقف الغربي، إلاّ أن هذا الموقف الراغب في تعريب أو أسلمة أو اعادة انتاج علوم مشابهة... هو بحاجة الى أرضية رزينة مأطرة تأطيرا حكيما ومدروسا.

سابعا: واقع الأنتروبولوجين العرب:

في حقيقة الأمر إن الأنتروبولوجين العرب من حيث الاسهام الانتاجي لا التعدادي يكاد يعد على أصابع اليد الواحدة، فلازلنا نلاحظ أن الأنتروبولوجي العربي يظهر بظهور محتشم في خطابات المجتمع ومرافقه، وأحيانا كثيرة يضاف كلمة اجتماعي (انتروبولوجي اجتماعي) لمسماه وكأنه استشعار لنقص ما في ذلك المسمى وهو منفرد لوحده، أو كأنه مستشعر أنه منفرد سيكون مسمى مبهم وغير متعارف عليه من حيث الانتشار مما يخلع على هذا العلم حالة التواري الملحوظة عليه.

كما أننا نجد أن الأنتروبولوجيا عندهم لازالت غير واضحة المعالم كعلم جدي قائم بذاته وانما مجمل الاسهامات هي خليط من التراث الشعبي والثقافة الشعبية ميدانيا، مختزلين في ذلك مجمل اسهاماتهم في موضوعات بعينها وليس في تخصص واسع الفروع والروافد مما يجعل حالة انعدامية لبعض الفروع الانتروبولوجية كالانتروبولوجيا الفيزيقية مثلا.

هذا ناهيك عن وضعيات أخرى عديدة نذكر منها:

1. نقص اثراء العلم من حيث المحتوى التجريدي نظرا لكون الكثرين اختزل هذا العلم في مجرد الدراسات الامبريقية لوقائع معينة، بل وحتى أن العلم بمحتواه الغربي غير

مكتفي بذاته اذا يستند في جل نظرياه على التخصصات القريبة منه وليس على نظريات من صميم اثرائه خالصة له.

2. عدم تقديم اضافات جدية تحسب لصالح العلم خاصة من الناحية العملية أو ما يسمى بالأنتروبولوجيا التطبيقية.

3. نقص الجانب التأليفي الذي يحوي البعد التجديدي أي يقدم طروحات غير الموجودة والمتناقلة أي الابتعاد عن التكرار الحرفي لمعلومات سبق وجودها في زخم من المراجع كالتكلم مثلا عن أنتربولوجيا الجزائر أو دراسات أنتروبولوجية بالجزائر ....

ثامنا:الأنتروبولوجيا في الجزائر:

تنقسم النظرة لعلم الأنتروبولوجيا في الجزائر الى ثلاثة أقسام هي:

النظرة الاديولوجية: التي ترى من علم الانسان علما استعماريا لابد من مجافاته، وهي نظرة ذاتية نفسية للعلم كونه كان آلية من آليات الاستعمار الفرنسي في التعرف عن محركات وخصوصيات المجتمع الجزائري، مما مكنه من احكام القبضة عليه وكشف هفواته ونقاط ضعفه الأمر الذي سهل العملية الاحتلالية تبعا لذلك، وهذا ما جعل الجزائريين لا يرحبون بهذا العلم كثيرا ناعيتينه بالعلم الخائن.

النظرة الأكاديمية: وهو اعتبار علم الانسان كأي علم من العلوم الانسانية والاجتماعية التي بإمكان الطالب دراستها، بحيث يعنى هذا العلم بالدراسة المنهجية العلمية والعملية للشعوب في ثقافتهم واجتماعيتهم وأجناسهم.

النظرة التخصصية: أي نظرة المختصين والممارسين للعلم الذي يرون أن علم الانسان هو علم مستقل بحاجة الى توسعة الاهتمام به والى بسطه على مستوى الرسمي والمجتمعي.

كما نلاحظ أيضا أن بالواقع الجزائري قد عرف حالة من الخلط بين الثقافة الشعبية والتراث والأنتروبولوجيا بكل فروعها الأمر الذي جعل هذا العلم في متناول كل عاطل، فأي شخص قام بالمكوث يوم أو يومين في مجتمع ما وحكى عنه أو كتب عنه انطباعاته العابرة اعتبر نفسه بهذا المقاس أنه انتروبولوجي، محولا العلم وكأنه قصص ما قبل النوم أو قصص

أنسة ما بعد الولائم، في حين الأنتروبولوجيا كعلم أكاديمي لا يمكن أن يتلبسها باحث جاهل بالمقومات المنهجية والنظرية للعلم، لأنه يفترض أن يكون محط مسائلة بأي منهجية سرت في الميدان وبأي نظرية انتروبولوجية فسرت؛ فعلم الإنسان أرقى من يكون مجرد حكاية ترويها في حالة شغور، فالعلم ليس محط للثرثرة فيه، وانما هو مؤسس بمنهاج محكم يفترض التمكن فيه أولا.

كما أن اعتماد الأنتروبولوجيا على بعض العلوم القريبة منه جعل من ما يفترض أنه مادة خام أولية تقدم على أنها العلم ذاته، ومثال ذلك الدراسات التي تقام حول اصطلاحات لغة أو لهجة ما أو حول أهازيج و طقوسيات معينة، هي أساسا في بداياتها الأولى فحسب؛ وان لم تؤطر بنظرية أو مقاربة أنتروبولوجية هي مجرد بيانات تستثمر في علم الأنتروبولوجيا وليست هي العلم ذاته وهذا على غرار كل العلوم.

كما يمكن الاشارة في هذا السياق الى اشكالية ضيق توسيع النطاق الأكاديمي للعلم في الجامعات كتخصص مستقل وانما وجوده في غالب كفرع أو كمادة في تخصص علم الاجتماع بل وحتى أن وجودها هامشي في هاته التخصصات بحيث توضع عند التخصص كمادة ضمن المواد الاستكشافية مخير في تدريسها من بين مادتين اخرتين (التاريخ الاجتماعي للجزائر، علم النفس الاجتماعي).

خاتمة:

إن المشروع التأصيلي لأنتروبولوجيا عربية يعد مرمى هادف وضروري، إلا أنه بحاجة الى المرور بمرحلة تدقيق النظرة الشمولية للعلم الغربي ذاته، هذا الأخير الذي بات عليلا نتيجة الحالة العقمية التي أحاطت به، مما أرداه غير منتج نظريا، فانحراف مسعاه من المسعى التصوري والعملي الى الاختلال الأمبريقي، اضافة الى النواتج الانفصالية عن علم الاجتماع التي تبدى منها فراغا نظريا ودعائميا واضح جدا.

ليبقى بذلك المسعى مكبلا نتيجة عدم تمهد السبل الفعلية له، خاصة وأن في البيئة العربية والجزائرية كما نشاهد لا زالت تستهلك هاته الأنتروبولوجيا الغربية بكل أمجادها وهفواتها، ولا تملك أي منأى عنها في ظل حالة اللاّبديل المشهودة لدينا.

اذن لابد أن يكون هذا نقطة تركيز هامّة لا مناص من المرور بها سواءا لتقييم المسار الذي مرت به الأنتروبولوجيا عربيا وجزائريا، لأنه في الوطن العربي برغم اختلاف الدول بها واثنياتها، إلا أن السيناريو العلمي يبقى ذاته في كل التخصصات: جلب العلم، ثم تطبيق العلم، ثم هوة العلم من المجتمع وفشل العلم في التفسيير، أي عقم العلم، مما يدفعنا للنقد، فرفض العلم، ثم المطالبة بالبديل لفظيا، واستمرار المطالبة وفقط الى يومنا هذا اذن هكذا ينسج العلم قصة في بيئتنا ليبقى الاستشراف الجدي لمجمل هاته العلوم الانسانية والاجتماعية مطلب لا زال قيد الأمل في توحيد الجهود لتحقيقه أو على الأقل رسم مشروع نظري لتحقيق مستقبلي له.

المراجع والهوامش:

[1] محمد عباس ابراهيم وآخرون، **الأنتروبولوجيا**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2009، ص 9.

[2] سعيدي محمد، **الأنتروبولوجيا**، دار الخلدونية، الجزائر، 2013، ص 9.

- [3] Mead Margaret , Changing Styles of Anthropological Work .Annual Review of Anthropology , *Palo Alto1973,p 280.*

[4] علي محمد المكاوي، **الأنتروبولوجيا وقضايا الانسان المعاصر**، الدار الدولية، القاهرة، 2007، ص 09.

[5] نفس المرجع، ص 10.

[6] حسين فهيم، قصة **الأنتروبولوجيا**، عالم المعرفة، الكويت، 1986، ص ص 16, 17.

[*] يتم هنا استخدام اصطلاح مدارس بتحفظ نظرا لغياب المعنى الحقيقي والصارم لمسمى مدرسة في العديد من البيئات المذكورة أعلاه، لذا سيتم استخدام اصطلاح مدرسة فقط لتعبير عن جملة الجهود الموحدة الغاية والتي تنتمي الى بيئة ثقافية واجتماعية واديولوجية واحدة.

[7] Marc Augé and Jean-Poul Colleyn,**L'Anthropologie**,Presses universitaires de France, 2004, pp14,15.

[8] عيسى الشماس، **مدخل الى علم الانسان**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 14.

[9] حسين فهيم، مرجع سبق ذكره، ص 17.

[10] الزهرة ابراهيم، **الأنتروبولوجيا والأنتروبولوجيا الثقافية**،ألنايا للدراسات والنشر والتوزيع،دمشق، 2009، ص23.